بشعارات ، بمزيدات ، بصور شعرية ، وليس بمفاهيم واعية ناضجة تمتد نظرة موضوعية تحليلية ، فاحصة ، دقيقة ، جامعة ، مطابقة لوقائع الواقع الموضوعي واحداثه ، او لمنطق هذه الوقائع والاحداث. فهو فكر وصفات فرضية ، أمرية ، حول ما هو خير أو شر ، ما هو صالح او طالح ، ما يجب صنعه او يجب تجنبه ، ما هي أحسن الطرق لنجاتنا الخ . ولكن دون تحليلات تاريخية اجتماعية موضوعية تنشق منها هذه الوصفات . أما « التحليلات » التي نجدها فهي تحليلات شعائرية ، اي تصورات وتجريدات قصدها ان تعلن عن شعار ، عن مصطلح ايديولوجي ، او مفهوم عقائدي معين ، يجرد الواقع من مقوماته ، من استقلاليته ، من موضوعيته ، يبشره ويخضعه. بما أن هذا النوع من الوصفات لا يحتاج الى اي جهد فكري كبير ثابت مستمر في دراسة وتحليل وقائع التاريخ وظواهر الاجتماع ، او الديناميك الثوري الذي ينطوي عليه ، فاننا نرى اعدادا وفيرة من العجزة الفكريين يزعمون انهم اطباء ، يتميزون بقدرة كلية في معالجة امراضنا وفي تحقيق خلاصنا . كل عاطل فكري اصبح يزعم بأنه عالم . هذه الملاحظات العجلى حول طبيعة الفكر العربي الثوري التبشيري لا ترمي الى غاية مجردة او اكاديمية . انها على العكس ذات غاية عملية اساسية . ففي اي تقييم لاية مشكلة عربية ثورية يجب ان نعي باستمرار طبيعة هذا الفكر ، فنحذر منها لانها تتسرب الى كل شيء وتكمن وراء وفي مجمل مواقفنا الثورية . لذلك كان موقف التشكك ، بل الاتهام ، هو الموقف الذي يجب الانطلاق منه عند مواجهة اشكال هذا الفكر .

معركتنا مع الصهيونية ، منذ ابتدائها عام ١٩١٨ ، كانت تتجه « بنوايانا » « بمشاعرنا » ورغباتنا ، دون ان نأخذ بالاعتبار اوضاع العدو وأوضاعنا ، أو نحسب حسابا لطاقاتنا . فهي كانت تنظر الى الواقع كما تحب ان يكون وليس كما هو . الفكر الذي رافقها وعبر عنها كان باستمرار عاجزا عن رؤية هذا الواقع .

المقاومة الفلسطينية طرحت نفسها او هكذا طرحها الفكر المقاوم — ليس فقط كفاحا مسلحا يرمي الى تحرير فلسطين « من النهر الى البحر » بل ثورة جديدة تتجاوز بها الثورات العربية السابقة ، ثورة جديدة تعالج مطارح الضعف والنقص التي ادت الى هزائمنا السابقة . ولكن الان ، وبعد مرور ست سنوات على ظهورها ، نجد مع الاسف الشديد ان هذا التجاوز لم يحدث ، وان الفكر المقاوم لا يزال من ذلك الفكر الذي رافق تلك الهزائم . فهو لا يزال امتدادا للفكر الثوري التقليدي ، اي لفكر يستمد الثورة من الاشواق والتصورات الذاتية فيعطي للمقاومة مقاصد وأبعادا ثورية يستمدها من رغباتنا وليس من اطار الواقع الذي يحيط بها ، ومما يسمح به هذا الواقع . فهو كذلك الفكر السابق يعتمد على « اللفظة » بدلا من الوقائع والاتجاهات التي تسودها . فان نحن أردنا ثورة من نوع معين ، فان هذه الثورة تشتق من ترديد كلمة ثورة ، وان نحن أردنا الوحدة فكل ما نحتاجه هو ترديد كلمة الوحدة او الدولة الواحدة . فالكلمة تتميز بأثر سحري ، تماما كما ترى في العقلية الدينية . بضع كلمات بضع طقوس. هذا ما يحتاجه المرء في احداث تغيير في مجرى الاحداث ، في تصحيح ما يعترضه ، في تغليب ارادته على ما يجابهه من موانع وتحديات . انه فكر جعل التخريج اللفظي يركب الوعي واستخراج حربه الشعبية التحريرية من لفظة التحرير .

في سبيل التمثيل على هذا العجز الاصيل في الفكر المقاوم(٢) سأقف فقط بما يسمح به مجال مقال من هذا النوع ، عند المنطلق الاساسي الذي بدأ منه هذا الفكر ، والذي بلور وحدد جميع مجالاته ، واعني تقديم المقاومة كحرب شعبية تحريرية مماثلة

---

(٢) انني اعني بهذا الفكر كل فكر ثوري قدم المقاومة كحرب تحرير شعبية ، دورها ان تؤدي الى اسقاط اسرائيل كثورة تتجاوز كل الثورات العربية الاخرى وتصحيح ما فيها من نقص ، كثورة يجب الارتباط بها دون هذه الثورات . انه كل فكر انطلق من مقولة النضال الفلسطيني واستقلال هذا النضال ، من مقولة فلسطين والثورة الفلسطينية بدلا من الانطلاق من مقولة الامة العربية والوطن العربي ، النضال العربي القومي الثوري والدولة الواحدة . هذا هو الفكر المقاوم الذي أعنيه الان . هناك فكر مقاوم آخر يرتبط بالمقاومة ، يعطيها ولاءه ويدعمها ، ولكن بالانطلاق من منطلقات أخرى معاكسة . اما السبب في الرجوع ، في هذا البحث ، الى الاول على انه يمثل الفكر المقاوم ، فانه يعود الى كون المقاومة نفسها تبنته الى حد كبير وجعلته فكرا لها .